مالك الحزين

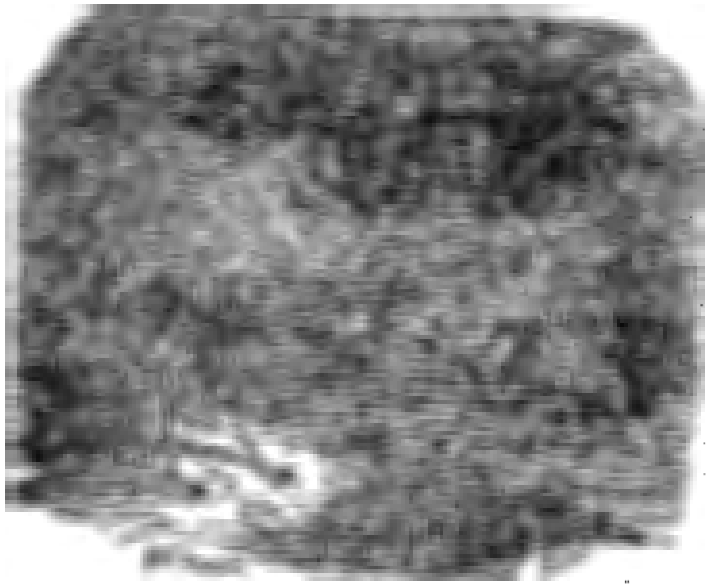

"هي البسيطة قد ضاقت عن النسم ... مشحونة بوجود صِيغَ من عَدَمِ
من طحلبٍ لا يكاد الحسُّ يدركهُ ... وهيكل وكلا الضدّين من نُظُمِ
ان اللبيبَ له في خلقها عِبَرٌ ... والجاهلين عن التذكار في صممِ"

مَنْ يطالع كتب السياح الطبيعيين يتعجب من تجشمهم المشاق لاكتشاف نبات جديد او لتحقيق مسألة جغرافيّة وليس لهم في الغالب وراء الغاية العلميّة غاية أُخرى لان العلم مطلوب لذاته عند ذويهِ نتجت عنهُ منافع ماديّة ام لم تنتج. وكثيرًا ما تخدعهم الحواس او تلتبس عليهم الحقائق ولكنّ مصباح البحث يظهر كل خفيّ ويوضح كلّ مبهم ولقد صدق مَن قال ان العلماء قد جمعوا اشتات المسائل كلها ولم يبقَ عليهم الاّ تمحيصها وتحقيقها

ومن المسائل التي لم يجمع العلماء حتى الآن عليها مسئلة الطائر المعروف بمالك الحزين وهو طائر طويل الرقبة والرجلين الى حدّ الغرابة كما ترى في الشكل الذي في صدر هذه المقالة فيبلغ ارتفاعهُ منتصبًا نحو خمس اقدام ولهُ منقار اعقف يثني رقبتهُ به

متى اراد التقاط شيء حتى يصير اعلى رأسه اسفله وذلك مختصٌّ به من بين الطيور . ويسكن الضحاضح الرفيفة الماء البعيدة عن الناس لانه يخشى شرهم . ويجمع عصائب كبيرة ويقيم عليه رقيبًا او دبدبانًا ينذره بالخطر . والبالغ منه احمر الريش رائعهُ به مهابة وجلال . ويبني افاحيصهُ (اي عشعاشهُ) في الضحاضح وفي هذا الشهر اي شهر مايو (ايار) تأخذ كبارهُ تصلح الافاحيص القديمة وصغارهُ تبني افاحيص جديدة من الطين . وهو يجرف الطين بمنقاره ويلصقهُ بالافحوص بقدميه وبالصاقهِ صوت يسمع عن بعد كالصفيق

وتُبنى الافاحيص قريبةً بعضها من بعض حتى يكون منها في البقعة الواحدة اربع مئة افحوص فاكثر وهي مستديرة مخروطيَّة ارتفاع الواحد منها من عشرين سنتيمترًا الى اربعين وقطرهُ من اسفلهِ نحو ٤٥ سنتيمترًا ومن اعلاهُ نحو ٢٢ سنتيمترًا وفي اعلاهُ نقرة بيضاء فيها بيضة واحدة في ما قيل . ومدة بناء الافاحيص في جزائر بهاما من اواسط مايو الى غايته ومدة الحضانة شهر يونيو (حزيران) وفي غايته او غرة شهر يوليو (تموز) تظهر الفراخ ولا يمضي عليها شهر حتى تصير قادرة على المشي والسعي في طلب رزقها ولكنها لا تستطيع الطيران حينئذٍ فتساق الى البر سوقًا كالقطعان وتصاد منه . وكان الرومانيون يباهون بلحمها ولاسيما بالسنتها لان فيها مادَّة زيتيَّة طيبة الطعم

والخلاف في كيفية حضن هذا الطائر لبيضهِ . قال دمبر الرحَّالة منذ مئتي سنة ان مالكًا الحزين يبني افحوصهُ في الضحضاح حيث يكثر الطين فيصنع منه دكَّة مخروطيَّة تبرز من الماء كجزيرة صغيرة ارتفاعها نحو قدم ونصف ويجعل في رأسها نقرة يبيض فيها ويحضن البيض واقفًا على رجليهِ ومنرشحًا فوق الافحوص . وتابعهُ الكتَّاب الذين جاءوا بعدهُ في هذا القول وصوروا مالكًا الحزين حاضنًا بيضهُ منرشحًا فوق الافحوص ورجلاهُ قائمتان على الارض وقد رأينا هذه الصورة وهي متناقلة في الكتب والجرائد

ومن مدة وجيزة دعت هذه المسئلة العالم بلاك الانكليزي الى تحققها في جزيرة اباكو احدى جزائر بهاما في الهند الغربيَّة فمضى اليها مع اللورد جورج فتزجرالد والملازم روبنصن وبعض الوطنيين فمروا اولاً على اراضي الاناناس وكان في أبان نضجهِ وقد جمعت منه كوم كبيرة على الشاطئ لتنقل الى السفن وظلوا سائرين الى ان بلغوا بحيرة ينبسط ماؤها في بطاح وسيعة ورأوا مالكًا الحزين في تلك الرفارق فاستتروا بين الاشجار والادغال على نحو نصف ميل من الطيور وجعلوا يراقبونها بالمنظار فرأوا الاناث

جاثمة على الافاحيص والذكور واقفة بجانبها مشرئبّة الاعناق كانها خائفة من داهية تفاجئها فدبوا على ايديهم وارجلهم الى ان صاروا على نحو مئة وخمسين متراً منها ورأوا حينئذٍ ان لا بدّ لهم من ان يتربّصوا في اماكنهم والاّ درت بهم وطارت من امامهم ففاتهم الغرض المقصود فجلسوا بين الجذور والادغال لا يبدون حراكاً وجعلوا يراقبون حركاتها وسكناتها وكان عددها بين سبع مئة والف والذكور واقفة معاً رافعة رؤوسها كأنها جنود منتظمة مستعدة للقتال . والاناث بعضها جاثم على الافاحيص وبعضها واقف على الطين فاقاموا ساعة زمانيّة يراقبونها وهي تجثم على بيوضها وتقوم عنها وتعود اليها فلم يروا واحدة منها تفرشح فرشحةً كما ادّعى دمبر ولم يروا الى ذلك سبيلاً لان ساقي الطائر ارفع كثيراً من الافحوص فاذا فرشح فوقه بقي بطنه مرتفعاً عنه

ثم اظهروا انفسهم فرأتهم الطيور وقامت الاناث ومضت الى الذكور كأنها تحتمي بها وتنتظر امرها ولما مشوا نحوها نهضت عن الارض كلها دفعة واحدة ومرّت في طيرانها من فوقهم ولو ارادوا ان يرموها بالرصاص لقتلوا كثيراً منها . ولكنّ حكومة بهاما تمنع صيد الطيور في اوان التوليد فذهبوا الى الافاحيص وتفحصوها جيداً فلم يجدوا في كلٍّ منها الاّ بيضة واحدة فاخذوا بعض البيوض لتحفظ في معرض الحيوان . وفي ظن المستر بلاك ان مسئلة حضن مالك الحزين لفراخه قد انجلت على الوجه الذي رآهُ اي ان اناث هذا الطائر تجثم على بيضها جثماً كسائر الطيور . ولكنا رأينا ان غيرهُ من الكتّاب يؤيد قول دمبر ولمالك الحزين ستة انواع فلا يبعد ان يكون بعض انواعهِ يجثم جثماً وبعضها يفرشح فرشحةً

وهذا الطائر موجود في القطر المصري وبالامس رأينا واحداً كبيراً منهُ لا يقلّ طولهُ عن متر ونصف من قدميهِ الى اعلى رأسهِ وقد بلغنا انهُ يوجد بكثرة في بحيرة المنزلة فعسى ان تمكّن الفرص احد محبي المعارف من تفقّدهِ في منازلهِ وتحقيق كيفيّة حضنهِ لبيضهِ

[ملحق] اسم هذا الطائر باللاتينيّة Phœnicopterus وقد سماهُ المرحوم احمد فارس بالنحاف وتابعهُ الدكتور بوست في هذه التسمية . ولم نعثر على كلمة النحاف في الفزويني ولا في الدميري ولا في القاموس ولا في محيط المحيط . ولسنا على ثقة تامّة من ان مالكاً الحزين هو هذا الطائر بعينهِ لان الوصف الطبيعي في كتب حياة الحيوان العربيّة ناقص جداً